وشكرهم على تلمُّم الحكمة والاستفادة والسؤال والطلب . وكان يقول ظَنُّ الرجل بالعلم والحكمة على المتقربين الى السعادة من اشدّ القسوة واعظم الاثم

قال : كيف تركتَ اهل البلاد ؟ قال : استلَّ الجهلُ سيفَهُ وأقلتَ من أساره وعزَّ بعد ذلهِ وفقرَ الحرصُ فاهُ مترقدًا متصرّفاً مستولياً غالباً فتغلّب خُشارةُ الناس وزُعمارهم فانقطعت موادّ العقول وضمرت النفوس ودخل الحزنُ علينا فنحنُ ممدودون من ايدي الجهّال متشرون في عيش نكدٍ

فبكى الاسكندر عند ذلك وقال : صابرنا وجهدنا في طلب هذه الدنيا الغرّارة وصابر العلماء وجهدوا في رفضها أبوا أن يقبلوها وأنّا لن نرفضها ورغبنا في ما زهدوا فيهِ وزهدوا في ما رغبنا فيهِ فأعقبهم فعلهم سروراً دائماً واعقبنا فعلُنا حزناً طويلاً فاصبحنا نرثي لانفسنا ونغبطهم ونبكي لأنفسنا ونفرح لهم . فالويل والثبور لمن سُلبت منهُ الدنيا وجميع ما فيها ونَصَبَ في ادّخارهِ منها ولم يدرك الآخرة

قال سقراط : الرجال اربعة جواد وبخيل ومُسرف ومُقتصد . فالجواد هو من اعطى نصيب دنياه لنصيبهِ من آخرتهِ . والبخيل الذي لا يعطي واحدًا منهما نصيبهُ . والمُسرف الذي يجمعهما لدنياهُ . والمقتصد هو الذي يُعطي كلّ واحدٍ منهما نصيبهُ . وقال : اذا كان العقل صحيحاً والفهم قويًّا كان يسيرَ التجربة لا كبيرًا . واما قرّة الابدان فانّما جُعلت قسماً لمن لا حظّ لهُ من العقل بمنزلة البهائم . وقال : الجاهل ان نطق اخطأ وان سكت عيَّ وان رأى عجز وان سلك ضلّ . وقال : الرخاء يبطر والبلاء يؤدّب (تمّ)

الرسول العلماني : فيليبرت ڤرو (١٨٢٩–١٩٠٥)

بقلم حضرة الفاضل بطرس سارة الراهب اللبناني

توطئة

لا اجهل ولا أفيد من نشر تراجم الرجال العظام تعزيزًا لجانب الفضيلة وتقديرًا

لها لهم من الخدم الجليلة في جنب الانسانية فانهم خير مثال ينسج عليه المرء ليسير على هدى من امره في طريق هذه الحياة فيمثل ادوارها تمثيلاً شريفاً يفيد مجداً لله تعالى وخيراً لنفسه وبني جنسه كما مثّلها اكبر الرجال فضلاً فيليبرت ڤرو (Ph. Vrau) صاحب هذه الترجمة . فانهُ مثال الشاب الذي بعد ان ركب مدةً متن غروره ارعوى عن غيّهِ واناب الى ربهِ ولجم اميال نفسه وهواه بحكمة العقل والدين . وهو قدوة الرجل العامل الصارف اعظم شطر من حياتهِ بين المَعْلة في مصنع والده بالكدّ والتعب وهو الوطنيُّ المحسن الصادق في خدمة بلاده . والمسيحي العابد السالك بحسب التعاليم الانجيلية الشريفة . والكاثوليكي الخاضع لأُمه الكنيسة ولرؤسائها . والمجاهد في الدفاع عن حقوقها وتعاليمها . والرسول المتفاني غيرةً في سبيل مجده تعالى وخير النفوس . والزاهدِ الحامل صليب ربه معرضاً عن الدنيا واباطيلها . ففيهِ يصحّ قول القائل :

اذا عُدَّ اهلُ الفضلِ كنتَ امبرّهم وان عُدَّ اهلُ النُبْلِ كنت المقدَّما

وقد اعتمدنا في هذه الترجمة على التأليف النفيس الذي وضعهُ سنة ١٩٠٦ المنسيور برنارد (M^gr Baunard) الكاتب الشهير مستنداً الى اوثق المصادر واخصها الرسائل التي دارت بين صاحب الترجمة وبين انسبائهِ ولاسيما صديقهِ كميل فيرون (C. Feron) وهي تنيف على المائة كتاب تصوَّرت فيها نفس كاتبها كما هي . ونحن بذلك نقدم لابناء الوطن على اختلاف طبقاتهم احسن قدوة يُقتدى بها خير الامة والبلاد . وبهذه يعلمون ان القداسة لا تختص فقط بالثوب الاكليريكي وحده فان من العلمانيين مَن اذا طابت فطرتهم وثبتت عزيمتهم ورسخ ايمانهم اتوا من الاعمال الخطيرة ما يقصر عن اتيانه سواهم واصبحوا بصفاتهم المسيحية من اعاظم القديسين

١ الفتى الطالب والشاب التائب

ولد فيليبرث ڤرو في ١٩ تشرين الثاني سنة ١٨٢٩ في مدينة ليل (فرنسة) ووالداه فرنسوا ڤرو وصوفيا اربيتو كانا معروفين برسوخ قدمهما في الدين وقوة ساعدهما على العمل . وكان له شقيقتان صوفيا ومريم ولم يكن له شقيق فرزقهُ الله

صديقاً منذ حداثته هو كميل فيرون رفيق دروسه وخدين حياته فكان له اعزّ من شقيق. ونبغ اذ ذاك بعلم الفلسفة ففاز بالجائزة الاولى في سباق موضوعهُ «الغاية الالهية» وله من العمر خمس عشرة سنة. غير انه ما تكلّل بنار النجاح حتى اصيب بجرحين مؤلمين الواحد في عقله والثاني في قلبه. دبَّ الفساد الى قلبه من العشرة الرديئة فامسى اسير عادات سيّئة وقع في حمأتها بإغراء بعض نظّار المدرسة الوطنيّة التي دخلها فسادت عليه الاميال المنحرفة التي عُلّت فيه الارتياب في حقيقة الديانة كما يحدث لكثير من الشبّان عند انقيادهم الى اهواء قلبهم فتعمى الشهوة بصيرتهم وتكسف نور عقليهم فيقعون في فخاخ الريب ومنهُ في الضلال والكفر. هذا ما اقرَّ بهِ صاحب الترجمة بعد ارتدادهِ الى الله فقال: «ما لعبَت الشهوات في قلبي حتّى ملتُ الى الارتياب في الديانة وأدّى بي ذلك الى اسوإ النتائج»

وكان وقتئذٍ يعلّم الفلسفة في مدينته السير بوسير (Beaussire) تلميذ ڤكتور كوزان الذي كان يبني فلسفتهُ على نبذ المعتقدات والرجوع الى البحث الشخصي. فحضر فيليبرت دروسهُ وما لبث ان تمذهب بمذهب معلّمهِ اي مذهب العقليين فاطفأ مصباح تعليم الكنيسة المنير ليستضيء بنور عقلهِ الضئيل. قال: «اني في السابعة عشر من عمري دوى صوتُ النعمة في باطن قلبي فتساءلتُ لِمَ تركتُ عقائدي الدينيّة فكان دمي يجمد في عروقي لدى فكري انهُ لمن المحتّم ان تكون صحيحة فوطّنتُ نفسي منذ ذاك الحين على مداومة البحث عن الحقيقة الدينيّة حتّى اتحقّق بالادلّة العقليّة والطريقة الوضعيّة ما الذي يجب ان اعوّل عليه»

ومن ثمَّ جعل شغلهُ الشاغل مدّة خمس سنوات (١٨٤٩ — ١٨٥٤) التفتيش عن صحّة معتقداتهِ التي حاول نقض اساسها في عقلهِ ليقينها بايمانهِ الخاصّة قال: «وكان عقلي متشاغلاً بالبحث وانّما قلبي لم يزل منخوراً بآكلةٍ تزيدهُ ألماً وقلقاً»

وكان فيليبرت بعد دروسهِ شارك اباهُ في اشغالهِ الشاقّة وأصبح لهُ خير عضدٍ في نجاح مصنع الغزل الذي كان يديرهُ والدهُ وكان قلبهُ الحنون يسعى مع ذلك طاقة جهدهِ في اسعاف المبؤسين من اهل وطنهِ يجود عليهم بسخاء بضروب الصدقات. الّا انَّ همامهُ في البحث عن الحقائق الدينيّة لم يدع لفكرهِ راحةً. وكانت اشغال والدهِ تضطرُّهُ الى الذهاب الى باريس فانشأ هناك دائرتين الواحدة في باريس والاخرى في ليل

كان يجمع فيها شبّاناً من معارفه واصدقائه ليلقوا معهُ المحاضرات الدينيّة للبحث عن الحقيقة التي جعلها ضالّتهُ المنشودة. ومما كتبهُ حينئذٍ الى كميل فيرون صديقه قولهُ: «فلنبحثنّ عن الحقيقة يا عزيزي ولتكن تجاه ابصارنا والغاية التي نرمي اليها دائماً لأنّ بهذا تقوم عظمة الانسان وقيمتهُ»

على انّ صديقهُ كميل لم يكن محتاجاً الى ذلك البحث وهو مسيحيّ حكيم كان منذ نعومة اظفاره وجد هناءهُ وسلامة قلبه في ايمانه سالكاً في حياته الطريق السويّ الامين قائماً بكل واجبات ديانته وكان أبعدَ من ان يتلوّث باوحال باريس حيث كان يدرس الطبّ. وشدّ ما كانت رغبتهُ ان يحظى صديقهُ فيليبرت باطمئنان قلبه وسعادة ايمانه

وكانت العناية الالهيّة قد قيّضت لفيليبرت ملاكاً آخر يرشدهُ في ما يلقاهُ من المصاعب في عنفوان الشباب ألا وهي امّهُ التي كانت ارضعتهُ التقوى مع حليبها فأسفت لحاله اذ رأتهُ ركب متن الشطط ودبّ الى قلبه الفتور واهمل ما كان يمارسهُ في حجرها من الفضائل المسيحيّة واعمال التقوى فانقلب على الديانة يلومها لزعمه انها تحصر الحقّ بيدها وتضيّق نطاق المعارف وتشدّد في حفظ تقاليدها وشرائعها وهي لعمري حجّةٌ طالما أدلى بها الخصوم على الكنيسة. وكادت الكبرياء تحملهُ على نشر راية العصيان والجحود لولا انّ فطرتهُ الطيّبة ابت عليه ذلك وقوّة خفيّة ردّتهُ الى الرشاد. وكانت امّهُ واصدقاؤهُ واثقين برجوعه الى جادّة الحقّ

وفي الواقع استجيبت صلاة والدته على مثال القديسة مونيكا وخرقت السحاب فانقشعت تلك الغيوم والاوهام التي كانت تحجبُ عن ابنها نور الحقيقة وتجلّت لهُ شمس العدل من وراء بعض المظاهر الغريبة التي فتحت لهُ سبيلاً الاعتقاد بوجود عالم آخر

وذلك انهُ كانت شاعت في تلك الأيام في جهات فرنسة محافل السبيريتسم وظهور الارواح بالطاولات الدائرة فأراد فيليبرت ان يحضرها فوجد في مظاهرها وحركاتها واجوبتها على اسئلة الحضور ما استوقف نظرهُ واستفزّ خاطرهُ واثبت لهُ وجود قوى غير طبيعيّة كانت حيناً تصدع بالحقّ وحيناً تضلّل السامعين بلفظها ومن جملة ما سمع من كلامها انهُ ليست ديانة صحيحة الّا الديانة الكاثوليكيّة. فكأن الله ارغم تلك الارواح على الاقرار بالحقّ فايقن فيليبرت من تلك المظاهر بحقيقة وجود

النفس وخلودها ثمَّ تحلّى بفضل نعمة الله وحكمة مرشدين طلب مشورتهم الى الافرار بكون عقل الانسان قاصراً عن ان يحيط علماً بكل ما في الكون من الاسرار. الّا انهُ لم يعرف لهُ وجهُ الحقيقة التي كان يتوق الى معرفتها الّا بعد نبذهِ ظهريًّا محبَّة الذات والاتكال على نفسهِ وهَرَع الى التضرُّع والصلاة كما صرَّح بذلك قائلًا: «طلبتُ بصلاتي ان ينعم الله عليَّ بمعرفتهِ فاستجابني الربّ ومنحني فوق ما كنتُ اوَمّل منهُ اذ أراني رأيَ العين وجود عالم آخر ما كنتُ لأعتقد حقيقتهُ فأذعنتُ للحال وجثوت على ركبتيَّ وتلوتُ الصلاة التي علَّمنا ايَّاها: ابانا الذي في السماوات

وقد تمَّ ارتداده عن يد الاب ڤيارت (Viart) اليسوعي المشهور بعلمه وتقواه. فتناول القربان المقدس بعد ان اعترف بخطاياه امام الله يوم عيد العنصرة ٢ حزيران سنة ١٨٥٤. وكان قد هجر مائدة الخلاص منذ اربع سنوات فبعد مصالحته الله ربَّهُ اصبح يسوع المسيح في القربان أليفه وسيده وعروس نفسه في الزمن والابد

٢ التائب والدعوة

وبارتداد فيليبرت هذا استردَّ والدُهُ ما كان فقدهُ من حرارة الايمان وازداد تمسكاً برحايا الله وحفظاً لواجباتهِ الدينيَّة بعد ان كان عائشاً كرجل عالمي يعتاد بواجب الضمير والشرف لا يعرف من الدين شيئاً سوى بعض لياقاتٍ اجتماعية

غير ان النفس الكريمة اذا انابت الى الله استسلمت الى ارادته القدوسة بكل ما فيها من قوة وعرفت جميلهُ تعالى عليها. كذلك كانت نفس فيليبرت ڤرو فانه ما توجَّه الى الله وصرعَتْه النعمة كما صرعت بولس من قبلهِ حتى كفر بنفسهِ وصار لا يرى غير الله ولا يتكلَّم الّا عن الله ولا يحيا الّا الله. وكانت رسائله في هذه الحقبة انشودةً يتغنَّى بها للرب الذي اشرق على عقله بالايمان وانزل على قلبهِ المحبة فانصرف الى عمل الخير وتمجيده تعالى. وقد حدثته النفس بترك الدنيا وخَلْع ثوب العالم واعتناق الدعوة الرهبانية لكنَّ موانع عائلية حالت دون رغبتهِ ولاسيما حنان والديهِ اللذين كانا يعلّقان عليهِ كلَّ ما لهما من امل في الدنيا وكان هو وحيدهما وموضوع حبهما ودعامة بيتهما. فلما ألمع الى والدتهِ باحدى رسائله عن فكرته هذه أبتْ عليه ذلك لا صدًّا له عن الدعوة الشريفة بل لاعتقادها أنَّهُ يكون رسولًا علمانيًّا ويأتي من الخير بين اظهر قومه

رجل المبرّات

فيليبرت ڤرو (١٨٢٩—١٩٠٥)

ما ربما لا يتسنّى له وهو في الدير . ولاسيما ان تلك الوالدة كانت متعلقة به فلا تطيق فراقه . فلم يرَ بدًّا من التسليم لارادة والديه وكان ذلك من اعظم المحن في عينه لكنه تذرَّع بقوة النعمة وشمّر عن ساعد الرجل الحزوم المشتمل غيرةً وحبًّا لله ولقريبه واخذ على نفسه بان يضحّيها على مذبح الخير لاجل وجه الله الكريم

٣ الرجل والعمل

واول ما بدأ به انه حوّل جمعية العُجّز في مدينته ليل الى جمعية مسيحية اذ كانت تنفي من قوانينها السياسة والديانة وكان هو امين سرّها فانضمّ اليه زمرة من الشبان جعلوا غايتهم العناية بالعجّز المرضى وإعدادهم لقبول الاسرار المقدسة . ثم انشأ السجود الليلي كما يترى ومن ذلك الحين اصبح القربان المقدس نقطة دائرة عبادته وديانته وبمساعه الحميد قامت اخوية السرّ الاقدس فنمت وازدهرت وضاعت بكثرة اعضائها غيرها من الجماعات الكبيرة كجمعية القديس يوسف (١٨٣٦) وجمعية القديس منصور (١٨٣٨) . وكان يستحثّ صديقه كميل ليكون معه في العمل يدًا واحدة

وعلى اثر ذلك ابتلاه الله بخسارة مبلغ من المال كان ضمّنه في احد المصارف لاحدى نسيباته امّ عيلة كبيرة فافلس ذلك المصرف ولزم فيليبت ارجاع ما كان ضمنه من المال فكانت عليه هذه المحنة من اشأم المحن . لكنه كان صبورًا في البلوى كبيرًا على المصائب اذ لم يرَ فيها غير ارادة الله الذي يشاء ان يمتحن ابناءه لتأديبهم وزيادة اجرهم . وبعد المرافعة خسر الدعوى وغرم دفع نصف المبلغ ولم يكن بيده ولا بيد والده شيء منه . فجُرح بذلك قلب والديه جرحًا اليمًا واضطرّ عندئذٍ ان يلأم جراحها ويعوض ما تكبدته العيلة المسكينة من خسارة مادية وادبية فوطّن النفس ان يبقى في البيت وان يعيش فيه كما عاش قبلًا اي راهبًا زاهدًا وهو في وسط العالم فالتأم بعد حين هذا الجرح وعوّض الله عنهُ بمزيد فضله

وكان صديقهُ كميل فيرون نال شهادة الاستاذ في الطب والتي يسكن مدينة ليل فجدد الصديقان عهود الوفاء وزادتهما العناية الربانية تقربًا واتحادًا ليعملا ما يوفقهما الله اليه من الخير ولاسيما بعد ان تزوج كميل فيرون بشقيقة فيليبت ماري فشاركهُ في اشغاله في مصنع الغزل الذي كان اخذ شهرة ونجح نجاحًا باهرًا بفضل واستقامة مؤسسه

فرنسيس ثرو والد فيليبرت المترجم وهنة فيليبرت نفسه الذي بعد موت والده صار يدير شؤون المعمل هو وصهره ووالدته بتمام الدقة والنشاط ويكثر له الزبائن في البلدان العديدة بما يُبديه من حسن المعاملة والتساهل واتقان العمل . وسار هو كما سار والده من قبله مستنداً في اشغاله على ذراع العلي القوية عائشاً كرجل ايمان وصلاة ورجل خير وعمل . فوضع الله بركته بين يديه وافاض الخير عليه وكثرت ارباحه التي كان يخصص ثلثها للبائسين بحسب وصية والده وبناء على عزمه هو

ثم جاءت سنة ١٨٧٠ التي دارت فيها رحى الحرب بين فرنسا والمانية وقاسى فيها الافرنسيون اهوالاً فتجرّع والد فيليبرت منها غصص الالم اذ فصلته عن بنيه ونكبت بلاده فاثر ذلك جداً في صحة شيخ ناهز السبعين فمات بشيخوخة صالحة بين يدي وحيده تاركاً له هذه الوصية التي نتمنى ان تكون بفم كل والد مسيحي حكيم :

«لله نفسي وجسدي وكل ما اعطاني . وامرأتي واولادي اضعهم في حمى العناية الربانية وادعو مصلياً الى الله من صميم قلبي ان يُبقي في عيالي روح الايمان والمحبة وأوصي اولادي ان يربوا بنيهم بهذه الشعائر الدينية . اما فيليبرت ابني فهو محامي شقيقاته وكل العيلة واملي ان يقوم بهذا الواجب كما ينتظر منه . واني اخصص ثلث ارباح محلي الحاضرة للبائسين معرفة جميل لله تعالى على ما اغدقنا من النعم والثروة»

٤ فيليبرت والسجود الليلي

السجود الليلي للقربان الاقدس مما ألفته الكنيسة قديماً ولاسيما الرهبانيات المنظمة وقد تأسس في باريس ٢٢ تشرين الثاني بزمرة من المسيحيين جمعهم حضرة الاب دي لابوليري (La Bouillerie) في غرفة احد الاسرائيليين المرتدين الى الايمان يُدعى هرمان كوهين وكانت غاية اجتماعهم عرض القربان المقدس والسجود الليلي له تعويضاً عما يلحقه من الاهانات واستجلاباً لبركة الله على فرنسا ومنعاً لما يتهددها من النوائب . واخذت الجمعية تنمو حتى ارتبطت بموجب رسالة حبرية تاريخها ١٢ تشرين الاول سنة ١٨٥٢ بجمعية السجود في رومية

اما في مدينة ليل فكان الفضل في تأسيس فرع لهذه الجمعية يرجع الى فيليبرت ثرو رغم ما لاقى من عدم النجاح والمصاعب في بادئ الامر فانه بمساعدة رئيس

بالجمعية الباريسية المسيو كيرلاس دي بنك (Benque) نجح في مسعاه. وكان في ليل بناية صغيرة مختصة بابناء المشيرة حوّلها الى محلّ لاجتماع الاعضاء الساجدين بعد ان اشتراها الكاثوليك سنة ١٨٤٠ وطرحوا في النار ما كان فيها من علامات الماسونية. ثم انشأ مكتبةً لمطالعة الكتب الجيدة ومكتب المبلة المقدسة ومحاضرات القديس منصور وكان مدير هذه الحركة الاب كورداسيه (Creurdacier) اليسوعي ومرشد السجود الليلي وكان للمسيو ثرو اباً روحياً ومساعداً غيوراً في العمل.

فعمّ السجود الليلي البلاد الافرنسية وتناهى عدد الساجدين بعد ان كان قليلاً. وتألّفت جماعتهم في طرر وتولون وايكس وليون ريواتيه وتولوز وبوردو واستراسبورج وغايتهم الصلاة لاجل رقي الجندية الافرنسية واتفاق الملوك المسيحيين ولاجل البابا وانقاذ الموتى. وممن اشتهروا في السجود المسيو شارل بوديل الذي صار فارس رتبة القديس غريغوريوس الكبير وكان من غرضهم مساعدة كهنة الرعايا وتحريض الناس على العبادة لسر القربان الاقدس والمناولة المتواترة. وانضمّت جماعتهم الى التي في رومية سنة ١٨٦٢ وحازت جميع انعاماتها. والسجود الليلي يذكرنا براهبات التعويض فانهنّ واياه على غاية واحدة. كان الاعضاء الساجدون يُحيون ليلةً بكاملها في كل شهر امام القربان وكنت تراهم قائمين حتى الفجر حول رب المحبة بينما المدينة في سكون الليل ليعوّضوا عمّا يحدث من الاهانات والخطايا. وكان عدد الساجدين الليلَ كلَّهُ يوماً في الشهر خمسين ساجداً وكان فيليبرت يتقدّمهم فيضرم قلوب الجميع بمثاله. وازداد عددهم حتى بلغ الاربعمائة في ليل وحدها. ولم يكتفِ المسيو ثرو بهذا السجود الليلي مرّة في الشهر بل اراد ايضاً في كل مساء من الساعة الثامنة الى التاسعة ان تتلى بعض صلوات ويُقام فرض السجود للقربان الاقدس. ويحسن ان ننقل فقرة من صلاة ثرو امام القربان تدلّنا عن عظم محبته لهُ في سرّ قربانه العجيب:

«يا ليت لي قلب السارونيم اهديكهُ يا ليكي المحبوب. انك بالغت في حبي ورغبتَ ان ابالغ في حبك لاجل كمالي وسعادتي فأضرم قلبي بكبريتِ نار محبتك الالهية لكي تريدني حيًا. اسألك بجراحك الخمس ان تعطيني خمس نعم: ١ روح التقوى لاصلي بحرارة الملائكة. ٢ روح الوداعة والكفران بالنفس لكي تكون انت نفسي ومحرّك افكاري واعمالي الوحيد. ٣ طهارة ملائكية لكي تكون مسرّتك في قلبي. ٤ ان أحسن استعمال وقتي ومالي لإنجاح

اعمالي . ٥ روح الامانة لاقوم في الوقت المعين واتقن صلاتي واحارب كل يوم محاربة ظافرة عدوّ خلاصي وخلاص قريبي آمين »

فكانت صلاتهُ هذه مستجابةً والحقُّ يقال انهُ قد حاز على جميع ما طلبهُ من النعم فجمع من الفضائل ما جعلهُ ان يبلغ شأوًا بعيدًا من القداسة . فكان ايمانهُ كالجبال يسوق به الى معرفة الله تعالى بكامل صفاته فتصغر الدنيا في عينيه . وكانت محبته كالنار الآكلة لا تريد الّا الخير ومهاجمة الشر . وناهيك بوداعته وتجرده عن حطام الدنيا وزخارفها اذ كان يكتفي من كل غناء بما هو ضروريٌّ فقط لحفظ حياتهِ موفرًا امواله للاحسان واعمال البر . وآثار تلك الفضائل الجمة كانت ظاهرة في جميع اعماله كما تدلُّ عليها هذه الترجمة المختصرة

وبغيرته وهمته العالية اراد ان يصيّر مدينة ليل مسقط راسهِ مدينةً مقدسة لله فاضاف الى السجود الليلي فيها الصلوات العموميَّة وسعى بتشييد الكنائس في احياء المدينة الجديدة وجعل في وسطها كاتدرائية نتردام تراپل (de Treille) مرجعاً لجميع الكنائس ثم ألّف النادي الكاثوليكي . وبالجملة انه كان موضوع إعجاب الجميع بما يبديه من ضروب التفاني في إنماش روح العبادة والصلاة والعمل في قلوب مواطنيه بمثاله وكلامهِ . وكان من اكبر مناصريهِ في العمل الاب برنردوس خادم كنيسة القديسة كاترين آنئذٍ فكانا بتأليفهما شركة الصلاة ربطهما روحها في النفوس عاملَين قويين على ربط القلوب بمحبة الله وضمّها الى قلب يسوع الاقدس ومقاتلة روح الشرّ والكفر الذي كان نفثهُ رينان الملحد بتأليفه حياة المسيح المزوَّرة سنة ١٨٦٣ ذلك الكتاب الذي كان لفرنسة كقبلة يوداس ليسوع اي مؤذناً بتجديد الالم للمخلص في القرن التاسع عشر . فلافاةً لهذا الشرّ ورأباً لهذا الجرح عمد الاب برنردوس والمسيو ڤرو على ان يعوّضا عمّا جاء في ذلك المؤلَّف من التجديف وان يغلبا البغض بالحب

وبعد تأسيسهِ نادي الشبيبة الكاثوليكية سنة ١٨٦٦ الذي عهد بادارتهِ الى احد الاباء اليسوعيين جعل غايته ضمّ نخبة من الرجال ومن الشبان خصوصاً للتضافر على عمل الخير بمعزل عن كل سياسة ولنشر المبادي الدينيَّة بالنظر الى المجتمع البشري فيرغب الناس في رعايتها وتأييدها . وقد اتسع نطاق هذا النادي فوقف عليه احد المحسنين نزلًا كبيرًا في الحي الملكي وهو احسن احياء المدينة كان كالعلّيَّة الصهيونية

يجتمع فيه الاعضاء فاتى باحسن النتائج على المدينة اذ مال بشبانها عن اللهو والاباطيل الى توسيع معارفهم وتعزيز جانب الفضيلة والدفاع عن الحقيقة . وعلى مثال ذلك النادي ترى اليوم بلا المرّة اندية الشبيبة الكاثوليكية تتألف في كل قطر وبلد لاجل الغاية الشريفة المنوه بها اي البحث في العلوم على اختلاف انواعها خدمةً للدين ومساعدةً للاعمال الخيرية

٥ الرسول والجماعات

امّا الجماعات التي اسسها هذا الرسول الغيور ليس فقط في شمال فرنسا كما ذكرنا بل في اكثر نواحيها فحدّث عنها ولاحرج اذ اتسع له مجال العمل وخصوصاً بعد موت والدته الفاضلة (١ التي كان متقيدًا بقربها . فكان يتفانى في سبيل تلك الجماعات متجشماً لاجلها الاسفار الشاقّة الطويلة جائلًا البلاد الافرنسية لا يعرف في جهاده تعباً وظلّ في ذلك ست عشرة سنة . وكانت تلك الجمعيات التي ألّفها في المدن والقرى بمثابة القلب في الجسم توزّع الحركة والقوة الى عمل الخير ونشر المعارف مقرونة بروح الدين والتقوى . وغايتها ان يتجدّد كل شيء بالمسيح وان يملك تعالى اسمهُ على النفوس فتبقى فرنسة مسيحيةً وابنة الكنيسة البكر رغم ما حلّ بها من نكبات الثورات وكوارث الحرب السبعينية . فكنت ترى الجمعيات بسعي الرسول ڤرو كحقول مخصبة ينمو فيها كل ما في الديانة المسيحية والكنيسة الكاثوليكيّة من جميل ومفيد وشريف وعظيم فيزكو ويزهر ويثمر . وكان مناصروه والاعضاء العاملون كثيرين اخصّهم غوستاف شامپو امين سرّه وذراعهُ اليمنى في العمل

واول عمل اتتهُ جمعية ليل سنة ١٨٧٥ تكريمها للرئيس الكاثوليكي لجمهورية خط الاستواء غراسيا موريتر الذي قضى شهيد ايمانه . وكان مركزها في ليل في غرفة

(١ كانت والدته صوفيا ممتازة بتقاها وصبرها على ما حلّ بها من النوائب وتملّتها الشديد بميلتها وإشفاقها على البائسين وسهرها على العمّال . وفي آخر ايامها اسعدها الحظ بأن حفظت في بيتها القربان المقدس مذخورًا في معبد خاص كان يقدس فيه الايمان البسوعيان مركيني (Marquigny) وفريست (Frist) اذ كانا مقيمين في بيت ڤرو كضيفين كريمين بعد ان طُردا من ديرهما في ٣٠ حزيران ١٨٨٠ . وماتت والدة ڤرو ميتة الابرار بعد ان شبعت من الايام اذ عاشت ٨١ سنة

المسيو ثرو ومكتبها دير القديس كرلوس بوروميو لاجل نشر الكتب الجيدة فانَّ الجمعيَّة نشرت سنة ١٨٧٢ ثلاثين الف نشرة ونحو ثمانين الفاً مثلها بسنتين بحيث كانت تجول صحائفها البلاد كلها . ومثله مكتب سانت آمان (S^t Amand)وما كان اعضاؤه غير اثني عشر عضواً وزَّع في ثلاث سنوات ٢٢٠،٠٠٠ صحيفة و ٩٠،٠٠٠ نشرة

وبين تلك الجمعيات التي وجَّه اليها فيليبرت عناية خاصة جمعية العمَّال التي نظم شؤونها المسيو البر دي مون والمركيز دي لاتور اذ انَّسا لها نادي العمَلة الكاثوليكي . ولما بلغ رئيس جمعية القديس منصور المسيو كولب فضلُ ومقدرة فيليبرت ثرو عهدَ اليه برئاسة شورى جمعية مار منصور المركزية في ليل (١٨٨٦) فدرس قوانينها ووسع نطاقها بأن كثَّر عدد محاضراتها والمنتشارين فيها ورأسها ١٨ سنة كان فيها إمام الاعضاء مثالاً حيًّا في التفاني والغيرة وقد نمت تلك الجمعيات فبعد ان كانت سنة ١٨٧٣ ٢١ جمعية و ٣٣ نادياً صارت سنة ١٨٧٤ ٨٦ جمعية و ٩٢ نادياً . وكان يسرع حيًّا بروحه فيها مالكاً على كلها وحازت بركته وعطف البابا بيوس التاسع سجين الڤاتيكان وقد وجَّه اليها رسائل الرضى والتعزية مراراً

٦ ثرو والمدارس

وبموآزرة الابوين مورتيه مؤسس ورئيس مدرسة باڤاي (Bavai) والاب ديهان (Dehaisne) والمسيو فيرون صهره والمسيو شامبر صديقه اسَّس كليةً سمَّاها كلية الشمال الكاثوليكية جامعةً لفروع العلوم بانواعها من لاهوتية وفلسفية وعلمي الفقه والطب واللغات وغيرها من العلوم التي ترقي الانسان وتهذب ارادتهُ وتحماهُ على ان يسير في طريق الحياة محافظاً على واجباته نحو الله وقريبه ونفسه

ولم تزل تلك الكلية رغم ما لقيتهُ من المصاعب في نشأتها وتوسيع دائرتها تزدهر وتنمو بضبط ادارتها ومقدرة اساتذتها الذين انتخبهم ثرو من خيرة الاساتذة علماً وفضلاً فضاهت ارقى الكليات وناهضت المدارس اللادينية اذ كانت غاية مؤسسها ان يقي الشبيبة الافرنسية من سمّ العلوم الفاسدة القتَّالة . فتخرَّج فيها شبان اذكياء خدموا وطنهم والبشرية اصدق خدمة وقد نالت مراراً بركة الاب الاقدس

البابا بيوس التاسع اذ تشرف باعتابه السير ثرو طالباً بركتهُ ورضاهُ فحظي بكل عطف ورعاية. وقد شرَّف البابا الكلية الكاثوليكية باسم الجامعة الحبرية واقام لها هو نفسهُ رئيساً ومستشاراً يمثله لدى مديري شؤونها هو المسنيور مرنيه مطران ليدا

اما المدارس الثانوية فانه لم يغفل فيليبرت عنها فقسم لها مدينة ليل ثلاث مناطق سمّى المنطقة الاولى «المنطقة الظافرة» لتغلُّب عدد التلاميذ الكاثوليك فيها على سواهم. والثانية سمّاها «المجاهدة» للمساواة في العدد بين كاثوليك وغير كاثوليك. والثالثة «المتألمة» لقلّة الكاثوليك فيها. وشملت عنايتهُ ايضاً مدارس الرعايا الفقيرة وكانت الغاية منها مصادرة المدارس التي لا دين لها وكان عدد الطلبة فيها من فتيان وفتيات لا يقلّ عن الاحد عشر الف طالب

ولم تكن هذه الاشغال الادبية تشغله عن الاهتمام بامر العمال المستخدمين في محلّ «ثرو وشركائه» فيُغني بحياتهم الاقتصادية وحياتهم الروحية موفّرًا لهم جميع الوسائل التي تضمن رغد نعيمهم في الدنيا وسعادتهم في الابد

٧ الرسول المجاهد

خاض فيليبرت ثرو معمعة الجهاد ضد اعداء الوطن والكنيسة وسار فيها شوطاً بعيداً دام خمس سنوات من سنة ١٨٧٦ الى ١٨٨١ ظهر فيها كالبطل المغوار الذي لا يُجارَى ولا يهاب الموت في الدفاع عن الحقّ. وكانت الظروف تعاكسهُ والعقبات تقف بوجهه اذ كانت ازمّة الدولة بيد الماسونيّة فلم يكن يحجم الى الوراء بل ظلّ مقداماً لا يلوي عزيمته عن العمل. فصرف ليس فقط قواه العقليـة بل مبالغاً وافرًا من اموالهِ دفاعاً عن البابا السجين يوم قامت عليه الحكومة الايطالية وجرَّدته من املاكه. وظهر في انتخابات النواب سنة ١٨٧٦ مجاهرًا بقوله: «ان لم تكن الجمهورية مسيحيةً فلا تثبت. ولا قيام ولا هيبة للحكومة الا اذا كانت دعامتها الديانة والشرف». ولم يخلُ من مقاومة اخاليل رينان وڤولتير اللذين كانا في نظره عدوَّين لدودَين ليسوع المسيح

ولما طُرحت شريعة الماسوني جول فِري على بساط المناقشة في مجلس النواب (٢٠ اذار سنة ١٨٧٩) مانعةً بمادَّتها السابعة اعضاء الجمعيات غير المعروفة من الحكومة كل حق في التعليم العام او الخاص قاصدةً بالاخص جماعةَ يسوع احتجَّ هو ومناصروه على

هذا الاستبداد بخطبهم وكتاباتهم وايّد الرأيَ العام احتجاجهم هذا فلم تُبرِمْ الحكومة اذناً صاغية وظلّت مصرّة على تنفيذ القرارين (٢٩ اذار) الجازمين الاوّل بان يتخلى اليسوعيون عن اديارهم بفرصة ثلاثة اشهر وعن مدارسهم بمدة خمسة اشهر والثاني يوجب على جماعات النساء والرجال ان تكون معروفة من الدولة بجهة ثلاثة اشهر والّا تُقفل اديارهم . فقامت البلاد وقعدت لهذا القرار الجائر وقال المسيو غروسو في خطاب له مبيناً ما تجرُّ شريعة فرّي على البلاد من البلاء : « انها تجعل الشرعَ بلا اله والعدالةَ بلا اله والجندية بلا اله والتربية بلا اله والزواج بلا اله والدفن من دون الله . وعدوُّها انما هو الله »

وكان لتلك المأساة التي مثّلتها الماسونيـة اسوأ وقع في نفوس الشعب وتركت صفحة سوداء في تاريخ الامة اذ اقفلت الاديار والمدارس الدينية وجرّدت الرهبان والراهبات من املاكهم وتركتهم مشتّتين تحت كل كوكب . وانتهت الرواية بفصل الدولة عن الكنيسة

فكان رسولنا المقدام في وسط الجهاد كالقائد الشجاع الحكيم ينفخ في صدور اعوانه روح الايمان الحي والوطنية الحقّة والطاعة للحبر الاعظم نائب السيد المسيح على الارض . واتفاني في مصارعة الشرّ بعمل الخير والبرّ . ولم يكن سلاحه غير الصلاة والسجود امام القربان وعمل الصدقات باذلاً اموالهُ ونفسهُ للمعوزين ولاجل المؤسسات الخيرية لاسيما مدارس التجارة والصناعة والفنون التي غصّت بالوف الطلّاب والمستشفيات والملاجئ للعجّز الى غير ذلك من الاعمال والمشاريع الخطيرة التي يعجز القلم وتضيق هذه المقالة عن تبيانها . وكان اوّلُ عضوٍ عامل في عقد المجامع القربانية وبسعاهُ انعقد اول مجمع قرباني في مدينة ليل في ٢٨ حزيران سنة ١٨٨١ باقتراح المنسنيور دي ساغور والمسيو دي بَنك بعد ان ذهب فرو بنفسهِ الى رومية ليحصل على تصديق البابا وعلى بركته الرسولية للمجمع . وكان ذلك على اثر الشريعة التي سنّها مجلس الندوة الافرندي نافيةً التعليم الديني من المدارس وفاتحةً بالشؤم باب المدارس اللادينية

٨ فرو والصحافة او الطباعة الصالحة

وقد اتخذ اقوى عدة للدفاع ومقاتلة الصحافة الشريرة اذ عُني بنشر الكتب

الجيدة وفتح المكاتب الزهانية ومنع النشرات المضرة بالدين والاداب . ومناصرة الجرائد الكاثوليكية وكان مركز هذه الحركة الادبية دار القديس شارل بورومي الذي اسسه لهذه الغاية كما اسلفنا . وقد كان قبلاً ينشر مجلة شهرية للجماعات تربطها بعضها ببعض ضمنها مواضيع مختلفة من تاريخية وتهذيبية وعلمية ودينية وانتقادية . وتولى بذاته ادارة جريدة فرنسة الحقيقية (la Vraie France) مدة عشر سنوات وكان محررها السيو غبريال دي لاكوتيور المشهور بمقدرته الكتابية وحسن ذوقه وصدق لهجته وتفانيه في خدمة الدين . ثم عهد الى ابن شقيقته السيو بول فيرون فرو بادارة جريدة لا كروا (La Croix) للشهورة التي اشتراها من الآباء الصعوديين حينما ارادت الحكومة مصادرتها

٩ ايامه الاخيرة — عيده الخمسيني — صلبه ووفاته

ان سنة ١٩٠٤ كانت آخر سني حياة المترجم امتازت بثلاث حوادث : بيوبيله وحتمه وميتته الهنيئة على قلب يسوع الذي انقذه من بلايا هذه الحياة الزائلة ونقله الى مجد السماء وسعادة الابد

كانت قد جرت العادة في معمل فرو ان يحتفل للعمال الذين صرفوا مدة ٢٥ سنة في ذلك العمل بيوبيل فضي تقديراً لخدماتهم وقد صار الاحتفال بهذا اليوبيل لكميل فيرون وللاخت سانت أليكسيس رئيسة راهبات المصنع . اما فيليبرت فلما الحوا عليه بالاحتفال بيوبيله لم يقبل الا ان يحتفلوا له باليوبيل الخمسيني تذكرة لرجوعه الى الله سنة ١٨٥٤ . واراد ان يكون اليوبيل بغاية البساطة متحرياً على القيام بالحفلة الدينية وحضور مستلمي ادارة المعمل ومستخدميه لا غير يجمعهم روح العيلة المقدس . وكان ذلك اليوبيل على بساطته حافلاً بأبهى مجالي الفرح والبهجة

وما انتهت تلك الافراح حتى بلغت الحكومة رئيسة راهبات المعمل على حين غرة امراً يقضي بتركها هي وراهباتها الثوب الرهباني بحسب شريعة اول تموز ١٩٠١ القاضية بحل الجماعات الرهبانية ولم يكن فيليبرت يدري بالامر اذ كان مطمئناً من هذه الجهة معتبراً ان الشريعة لا تتناول الجمعيات الخاصة كالراهبات مديرات معامله . فشق ذلك عليه جداً لكنه لم ير بدّاً من الاذعان للامر مستسلماً فيه كجاري عادته لارادة الله

تعالى . ثم اقيمت عليه الدعوى في شباط ١٩٠٤ بدعوى كونه لم يحترم الشريعة بتقديمه محلًا آخر للراهبات اللاتي كنّ يُقمنّ وهنّ بالثوب العلماني الخلافاً لمجتمعات خلافاً الشريعة . فحكمت محكمة ليل في ٤ آب سنة ١٩٠٤ بجلسة رأسها السيو سي (Sée) حكماً غيابيًا على فيليبرت ڤرو بالسجن شهرًا وبغرامة ٥٠٠ فرنك وعلى كلّ من الراهبات الستّ بخمسمائة فرنك فكان لهذا الحكم الجائر اسوأ تأثير في نفوس اعيان المدينة وعقلائها . امّا فيليبرت فاعترض متنصّلًا بالكتابة من كل ذنب ثم استأنف اعماله الخيرية في ١ ك١ سنة ١٩٠٤ وذهب الى رومة لحضور المجمع المريمي الخمسيني تكريماً لاعلان عقيدة الحبل بلا دنس ولاجل إعداد مجمع قرباني في رومة ذاتها ١٩٠٥ بعد الحصول على بركة البابا بيوس العاشر . ثمّ غادر في ١٣ اذار عاصمة الكثلكة عازماً ان يتجوّل في شرقي فرنسة لتفقُّد شؤون الجمعيات فيها واخصّها جمعية مسار منصور التي كان هو احد اعضاء شوراها . فما وصل باريس حتى ظهرت في جسمه اعراض مرض شديد الوطأة فاستأنف سيره الى ليل ووصلها في ١٩ آذار عيد القديس يوسف ولم يعلم به احد . ولازم غرفته وفراشه حتى آخر يوم من حياته

ولمّا رآهُ الدكتور اوجيه صديقه ارتاع لما وجد فيه من حالة الخطر الناتج عن تقدمه في السنّ وعمّا كان يعانيه من الالتهاب غير مُشفق على صحته . فقاسى في مرضه اوجاعاً مبرّحة صابرًا ومسلّماً لمشيئة الله . فاجبأت شقيقته الى الصلاة واقترحت ان تقيم واياهُ تساعيةً لسيدة لورد فلم يُرد الّا ان تكمل فيه مشيئة الله تعالى في الحياة وفي الموت

وكنت تراه على سريره مثال الوداعة والانس والبساطة والسكوت لا يئنّ من وجع ولا يفوه بكلمة حتى كلمة الوداع بل كان مشتغلًا بالخير الى آخر دقيقة من حياته مختليًا بالله في باطن نفسه . وكان الالم والارق الطويل والاستفراغ الدائم لا يفارقه ويظلُّ صائمًا من نصف الليل حتى الساعة الخامسة ليتناول القربان المقدس في كل يوم ومَن سأله الامتناع عن المناولة يوماً كلّفه اكبر مشقة . فكان يُسمح لهُ بالقراءة والكتابة فيخصصهما لما كان يُفكر به وهو على فراش المتون من الاعمال الخيريّة كالاجتماع العامّ في جمعية مار منصور الذي كان ساعياً لانعقاده وقد تمنّى قلبه برياسة السيو تون رئيس هذه الجمعية العام اياه وسيادة مطراني ليدا وأراس اللذين

قدما ليل لحضور الاجتماع المنوّه به . فكان ذلك اليوم من اسعد ايامه اذ تمكن ان يتزوّد وهو راحل الى الابديّة بركة حبرين جليلين وان يعرف ويُسرّ بانعقاد الاجتماعات العلميّة التي كان انسها وبالاحتفال بالمجمع القرباني السادس عشر في رومة الذي كان يسعى لانعقاده

وفي ١٥ ايار اقترح عليه الكاهن المسحة الاخيرة فطلب اليه اوّلا مهلة نصف نهار يستعدّ فيه لقبول هذا السرّ فعند الساعة في ساعة يرد فيها السكون والخلوة ادّهن بالزيت المقدس وفي الصباح بينما كانت تتلى عليه صلوات المنازعين كان يتبع الكاهن بصوت خفي محرّكاً شفتيه . وكانت الطمأنينة ساندة على جبينه ونحو الساعة السابعة ونصف مساء جثت العيلة قرب فراشه وابتدأت بتلاوة المسبحة فكان يسلّم على العذراء كلّما قالوا : «السلام عليكِ يا مريم» . وما زال يتبع المصلّين حتى البيت الثالث حيث انقطع صوته بغتةً ثم خفت انفاسهُ وما انتهى البيت الخامس الاخير حتى لفظ المحتضر روحه عند قولهم : « صلي لاجلنا الآن وفي ساعة موتنا آمين »

فقضى رسول الخير ورجل البرّات بعد ان صرف في هذه الحياة ستًّا وسبعين سنة مكلّلة باعمال البر والقداسة . فكان لنعاه رنّة اسف في جميع المراكز والبلدان التي عرفت فضائله وفضله ووردت على انسبائه رسائل التعازي من كل طبقات الناس ومن سائر البلاد على اختلاف اللغات تحييه وتدعوهُ «برجل ليل القديس»

وكان له مأتم حافل جمع العدد الغفير من الكهنة والرهبان والرجال والنساء . والاولاد ممن اتوا ليتبركوا من ذخائر رجل الله هذا . وبينا الناس يحتفلون بأمره كان رئيس العدليّة يطالب بتنفيذ الحكم عليه بالسجن فما تلفّظ باسم فيليبرت فرو حتى ساد السكوت في قاعة القضاء ووقف المحامي السيو تاري (Thery) وقفة الهيبة والوقار وقال : « يا حضرة الرئيس ان السيو فرو قد مات » فرفع دعواهُ الى محكمة الله . وكان اوصى في وصيّته الاخيرة ان يُحمل قلبهُ في صندوق جامعة ليل وان يسلّم جسدهُ الى المكتب الطبي الكاثوليكي فيشرّح فيفيد البشريّة في حياته ومماته وان يكون دفنهُ غاية في البساطة

واليوم تسعى الكنيسة في تطويب هذا الرجل البارّ لما ظهر من الكرامات والمعجزات بشفاعته مع ما ثبت لها من سمو فضائله وقداسة حياته حقّق الله هذه الاماني